

دور الزوايا في الجزائر خلال الفترة العثمانية والاحتلال الفرنسي

The roles of the zawiya in Algeria during the Ottoman period and the French occupation

تاريخ النشر: 2025/06/11

تاريخ القبول: 2025/06/09

تاريخ الإرسال: 2025/01/09

نورالدين بن قويدر¹¹ جامعة باتنة 01، الجزائر،EMAIL: noredine.benkouider@univ-batna.dz

الملخص

تعتبر الزوايا إحدى أهم المؤسسات الدينية والثقافية التي لعبت أدواراً فعالة ومتميزة في المجتمع الجزائري خلال الفترتين العثمانية والإحتلال الفرنسي، ورغم مكانتها الروحية والقيمية، فإنها لم تسلم أثناء الكتابة والتدوين في تاريخ الأمة الجزائرية، وبات دورها محل خلاف بين الباحثين والمهتمين بمختلف خلفياتهم الثقافية والعلمية، فاختلقت قراءتهم لأدوارها، وانقسموا بين إنصاف أو إجحاف في الحكم عليها وعلى مدى إخلاصها في خدمة الدين والوطن، و ألبسها البعض ثوب الخيانة والعمالة لصالح المستعمر، لذا فإن هدف هذه الورقة البحثية هو دراسة هذه الأدوار رصدًا وتحليلًا وفق مقتضيات الموضوع، وحث الكتابات المشككة إلى مزيد من القراءة والتدقيق والبحث الموضوعي، وتحري الحقيقة وإدراك المعرفة حول إشكالية وطبيعة الأدوار التي لعبتها الزوايا من الفترة العثمانية إلى الاستقلال، وبعد دراسي لهذه الإشكالية أمكن التوصل لنتائج منها: أنَّ الزوايا كانت قلعة للعلم والتربية وحصنًا للتعبئة والجهاد في سبيل الله والوطن، وعون للمجتمع في وقت أهملته الإدارة العثمانية، وأزرت مقاومته بمختلف أشكالها وثورته التحريرية ضد الاحتلال الفرنسي، فعُدَّت بذلك قاعدة خلفية للنضال الثقافي والإصلاحي والسياسي والثوري أثناء المقاومة الشعبية وثورة التحرير.

المؤلف المرسل: نورالدين بن قويدر، الإيميل: noredine.benkouider@univ-batna.dz

Abstract:

The zawiyas are considered one of the most important religious and cultural institutions that played effective and distinguished roles in Algerian society during the Ottoman and French occupation periods. Despite their spiritual and value-based status, they were not spared during writing and documentation in the history of the Algerian nation, and their role became a subject of controversy among researchers and those interested in various cultural and scientific backgrounds. Their reading of their roles differed, and they were divided between fairness or injustice in judging them and the extent of their sincerity in serving religion and the homeland. Some dressed them in the garb of treason and working for the benefit of the colonizer. Therefore, the goal of this research paper is to study these roles, monitor and analyze them according to the requirements of the subject, and urge skeptical writings to further reading, scrutiny and objective research, and to investigate the truth and realize knowledge about the problem and nature of the roles played by the zawiyas from the Ottoman period to independence. After studying this problem, it was possible to reach the following results: that the zawiyas were a fortress of knowledge and education and a stronghold of mobilization and jihad for the sake of God and the homeland, and a support for society at a time when the Ottoman administration neglected it. It supported his resistance in all its forms and his liberation revolution against the French occupation, and thus became a rear base for the cultural, reformist, political and revolutionary struggle during the popular resistance and the liberation revolution

Keywords: Zawiya, society, occupation, resistance, revolution..

1. مقدمة:

إنّ كتابة التاريخ الوطني واجب يتشرف به كل المهتمين والباحثين، لكن ليست من الموضوعية والعلمية؛ الكتابة بلغة التشويه، وهذه الورقة البحثية تطرح إشكالية في غاية الأهمية، وتعلقت بطبيعة بعض الكتابات التي وظّفت في تحليلها مفردات قاسية مثل "التخوين" و"التكفير" و"العمالة"، وهي أدبيات غير مبررة، لا تسيء للكاتب والكتابة فحسب، بل وتسيئ لتاريخ الأمة و رموز نضالها ومقاومتها. وهذه الدراسة تهدف إلى الحث على تجنب الأحكام والنعوت والاكتفاء بفهم الأحداث والظروف في تبيان الدور الفعلي للمؤسسات الدينية في الجزائر خاصة الزوايا في الفترة العثمانية والاحتلال الفرنسي، وقد اتبعت المنهج الوصفي والتحليلي في الإجابة على بعض الأسئلة منها: ما طبيعة دور الزوايا الذي أسسئ فهمه بقصد أو بغيره؟، وما أسباب اهتمام المحتل بالزوايا؟، وما هي مبررات وصف دورها بمختلف النعوت؟ وهل كان للزوايا دور مزدوج مريب أدخل الباحثين في خانة التهويل والتأويل؟

2. دور الزوايا في فترة العثمانية:

تميز العهد العثماني في الجزائر بانتشار الطرق الصوفية و كثرة المباني المخصصة لها (الزوايا) ، ففي المدن و الأرياف عاش أغلب المتصوفة يبثون عقائدهم و يلقنون أتباعهم ، وكلما برز أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار و الغرباء و الأتباع وعلم الطلبة و أصبح اسم المتصوف (المرابط) علما على المكان ونسب له، بل وأطلق الناس عليه تسمية زاوية فلان أو رباط سيدي فلان.

1.2 الدور التعليمي والاجتماعي:

تجلى دور الزوايا بالمناطق الريفية في التعليم ، فضلا عن وظيفتها الدينية فقد كانت بمثابة معاهد لتعليم النشأ و تنوير العامة ، وذاع صيت بعض الزوايا و الخلوات الريفية



حتى صارت محجة للزوار والطلبة ، ومن الأمثلة البارزة: زاوية خنقة سيدي ناجي و خلوة عبد الرحمان الأخضرري و ضريح سيد خالد و زاوية محمد بن علي المجاجي و زاوية القيطنة و زاوية ابن علي الشريف.

و لم ينحصر التعليم في الزوايا بالأرياف ، بل أيضا في المدن وبعضها كان له دور فاعل في نشر التعليم بجميع مستوياته، مثل الزاوية القشاشية التي تحولت إلى مدرسة عليا أو معهد عالي، إلى جانب هذه الزاوية وُجدت زاوية شيخ البلاد في مدينة الجزائر ، أما خارج العاصمة فقد لعبت عدّة زوايا أدوارا بارزة في نشر التعليم مثل زاوية الفكون في قسنطينة، وزاوية مازونة ، وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي ببجاية وغيرها من الزوايا في ربوع الوطن (يحي، 2017).

2.2 الدور الثوري:

نتيجة التحرشات المتكررة من بعض دول الجوار على غرار إسبانيا والبرتغال على السواحل المغاربية، و نظرا لتدهور هيبة و سلطة الحكام المحليين وتراجع قوتهم وعجزهم على صدّ هذه الاعتداءات، حتى أن بعضهم تعاون مع العدو ضد مصلحة أبناء البلد وهو حال الزينانيين على سبيل الذكر ، وقد نمت علاقة كبيرة بين الطرق الصوفية (الزوايا) والعثمانيين ساهمت في الوحدة لمواجهة الأخطار الخارجية، وقد أشار الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى هذه الحقيقة والتي مفادها : "أن الحركة الصوفية في الجزائر كانت موجودة و منتشرة حتى قبل الوجود العثماني في الجزائر، غير أن فترتهم وحكمهم هو الذي شاع فيه التصوف بشكل لافت للانتباه"، وعليه يمكن أن نستخلص نتيجة أولية تتمثل في أنّ الزاوية لعبت دورا ثوريا ونضاليا لا يمكن نكرانه، وقد كانت الزوايا في مستهل الفترة العثمانية في هيئة رباطات وقواعد أمامية ضد الأعداء ، وكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب والمقاومة و يدعمون المجاهدين و يطعمونهم في زواياهم و يتحالفون مع الأمراء المقاومين في سبيل الله والوطن ، لذا ساهمت الرباطات في فتح وهران الأول سنة (1119هـ) و الثاني سنة (1205هـ). و لكن تراجعت دوافع الجهاد لديهم بعد زوال الخطر الخارجي ، وعاد المرابطون إلى قلاعهم الحصينة (الزوايا) ، لأنّ بعض هذه الزوايا أصبحت مراكز لتدريب الأتباع على الثورة ضد سلطة آل عثمان خاصة في أواخر عهدهم، ومن أمثلة ذلك: ثورة يحي الأوراسي و الزبوشي ، و ثورة الدرقاوي ابن الشريف وثورة ابن الأعرش ، و

تمردت الزاوية القادرية و الرحمانية و الزاوية التجانية في عين ماضي ونواحيها لنفس الظروف والأهداف وتحولت بعض القبائل إلى قبائل معارضة.

ولكن هذه الأدوار والأطوار التي مرت بها الزوايا لا تخلو من العواقب السلبية : حيث أنّ الإفراط في الاعتقاد بالشيخ وانتشار الزوايا والأضرحة أفرز نتيجتين خطيرتين: أولاًهما تبسيط المعرفة و ثانيتهما غلق باب الاجتهاد، كما أنّ نقل التعليم إلى الزوايا ساهم في الاكتفاء بالحد الأدنى منه بطريقة جافة و ضيقة، و أصبحت الزاوية تنافس المدرسة والجامع في نشر التعليم و كسب الأنصار، و بدل أن يلتف الناس حول العلماء في المدارس و المساجد ،فانصرفوا عنهم واتجهوا للزوايا والتفوا بشيوخها، ومال المخيال الجمعي نحو التفكير الخرافي و الزهد، و تدهور مستوى التعليم بشكل عام.

3. دور الزوايا في فترة الإحتلال الفرنسي 1830-1962

1.3 ثقافيا ودينيا:

فضلا عن الدعم المالي واللوجستيكي للمقاومة (حواتية، 1989)، فقد تمحور دورها في تحفيظ القرآن الكريم وفق برنامج محدد حسب السن والكفاءة ما يستدعي الحضور اليومي وإشراف الشيخ (زيطة، 2000)، تدريس الحديث والسنة النبوية وتحفيظ الأحاديث النبوية وشرح صحيح بخاري، وتحفيظ مختلف متون الفقه المالكي مثل متن بن عاشر والأخضري والعبقري وأسهل المسالك...تلقين متون التوحيد والعقيدة واستظهارها على المشائخ، وتعليم علوم اللغة مثل النحو الصرف والقواعد (الصادق، 2003) والإعراب من أجل فهم الدين .

2.3 اجتماعيا:

تمثل دورها في إيواء الفقراء والمساكين بإطعامهم وإدخال الفرحة لديهم في الأعياد والمناسبات الدينية، ورعاية عابر السبيل واللاجئين للزوايا، وتنظيم الختان الجماعي لأبناء الزاوية والقرى المجاورة، وتنظيم ولائم وتكريمات حفل إختتام القرآن الكريم و تنظيم ركب الحجيج ذهابا وإيابا والتكفل بالإنفاق والإيواء (بنزيطة، 2000)، والقيام بالصلح بين



المتخصصين وفك النزاعات بين القبائل والأفراد، وبث روح التعاون والتزام الجماعة والقيام بالأعمال التطوعية لإصلاح السواقي ومصدات الرياح (بن زطة، 2000)، ودعم البلاد والأقطار الإفريقية المجاورة بالأئمة ومدرسي القرآن.

3.3 الدور الثوري للزوايا في المقاومة المسلحة بين (1830 – 1919):

ارتكزت استراتيجية إدارة الاحتلال الفرنسي على حرب الإبادة ضد الشعب الجزائري، وكانت أولى أهدافها المؤسسات الثقافية و الدينية التي تعرضت إلى الإتلاف و التدمير خاصة المساجد و الجوامع و المدارس و الزوايا ، وقد شمل ذلك ما يربو عن 349 زاوية، فاندثرت زاويا القشاش والصباغين و المقياسين و غيرها.و قد كانت الزوايا مدارس لتكوين وتدريب الرجال والنساء لمواجهة الاحتلال ومن أمثلة من عُرفوا بالتصدي للاستعمار الفرنسي : الثائرة والمجاهدة لالة فاطمة نسومر (الرحمانية) والشيخ الحداد (الرحمانية) وغيرهم ، وهذا الأخير استطاع أن يجند 15000 مجاهد في يوم واحد عندما انطلقت ثورة 1871م (نسيب، د.ت)، و ذكر الباحث الفرنسي " جان كلود فاتن": إن الزوايا في الجزائر كانت تشكل أقطابا للمقاومة وخلايا للرفض ومواطن للانتفاضة المسلحة، أما "إيفون تيران " فتقول : تعتبر الزوايا مسؤولة عن انتفاضة 1871 حسب ملخصات من مذكرة الجنرال فيولا شارون المؤرخة في 1849/06/29م، فالزوايا كانت معاقل للرفض وإيقاظ الوعي الديني والثقافي والسياسي الوطني .

إن مسيرة الفكر المسلح ليست وليدة الحركة الوطنية فيما بين "1919-1954" بل عمل دؤوب ومتواصل امتدت جذوره إلى فترة خلت من مرحلة المقاومة والانتفاضات الشعبية في القرن التاسع عشر الميلادي (محساس، 2003). فواجهت الغزو الفرنسي منذ البداية بالكفاح المسلح، ولم تتوقف طيلة فترة احتلاله للجزائر بين "1830 – 1962" (دحلب، 1986)، واستهلت المقاومة خلال القرن التاسع عشر، بدءا بمقاومة المتيجة عام 1830م التي جاءت كنتيجة لفشل المقاومة الرسمية (سعدالله، 1992)، إذ واجه السكان في 23 جويلية 1830 قوات الاحتلال الفرنسية بمقاومة مسلحة- عسكرية- سخرت خلالها كل فئات الشعب وانتهت بانتصار الثوار الجزائريين، كانت المقاومة في هذه الفترة على أشدها (مودبخت، 2002)، حيث ضيقت الخناق على المحتل، وفي منتصف 1831 عبرت القوات

الشعبية بقيادة ابن زعموم (الابن) وادي الحراش وهاجمت المزرعة النموذجية للفرنسيين وأحرقت المحصول، وأمام تصاعد الموقف استجاب الفرنسيين لرأي المقاومين الذي دعاهم قائلا: "ابقوا حيث أنتم ونبقى حيث نحن، وإلا فالحرب بيننا لن تنقطع"، فقبل الجنرال الفرنسي بيرتزين بذلك الرأي، وجرت مفاوضات بينه وبين أعيان مدينة الجزائر إلا أن المناوشات استمرت بين المقاومين وقوات العدو في متيجة ما بين 1833 - 1837 (سعدالله، 1992)، تلتها فيما بعد مقاومة الأمير عبد القادر (القادرية) وامتدت في 1832م على غاية 1847 (يوسفي، 2002)، أين حقق الأمير انتصارات كبيرة على الاستعمار الفرنسي (دحلب، 1986)، بعد أن شرع في تكوين جيش وطني، وشن هجماته العسكرية على قوات العدو، ابتداء من 4 فيفري 1833 (بوحوش، 1997)، فدار بينه وبين العدو معارك عدة، لعل أشهرها قاطبة معركة المقطع قرب سيق يوم 17 جوان 1835، مني فيها جيش الجنرال تريزل بهزيمة كبيرة، وخسر خلالها حوالي 700 جندي فرنسي (بنادر، 2008)، وعزل إثر هزيمته وعين بداله المارشال كلوزيل، وبعد إمدادات عسكرية لقوات العدو تمكن الغزاة من الاستيلاء على مدن الأمير عبد القادر، مثل معسكر، تلمسان، مليانة، تاقدمت، المدينة، والتي كانت مراكز هامة للتموين ولمصانع الأسلحة والذخيرة (شرشل، 1971)، واجه الأمير عبد القادر مشكلة الذخيرة وهي من أخطر المشاكل التي أجبرته على قبول التوقيع على معاهدة التافنة في 30 ماي 1837، مع الجنرال بيجو، حاول الأمير مواصلة كفاحه بسبب نقض فرنسا للمعاهدة ولكن وجد نفسه عام 1847 مرغما على قبول الشروط التي فرضها عليه الجنرال الفرنسي لاموريسير (بوحوش، 1997) وفي الوقت نفسه الذي لعب فيه الأمير دورا بارزا في الغرب الجزائري، شهد الشرق الجزائري مقاومة متزامنة معه ولا تقل ضراوة، وهي المقاومة التي قادها الحاج أحمد باي (سعدالله، 1992)، الذي اعتمد إستراتيجية محكمة، مكنته من تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين، وبعد مشاركة غير منتظرة في رحلة الدانوش، بالمعارك الأولى بعد الإنزال بسيدي فرج، عاد الحاج أحمد ليحصن مقاطعته ويستعد لمجابهة الفرنسيين، لذلك جند 1500 رجل من المشاة و5000 من الفرسان وباستعداده لمواجهة الجيش الفرنسي، تمكن من إلحاق هزيمة كبيرة به في شهر نوفمبر 1836، واستمرت مقاومته الباسلة 18 عاما، إلى أن

استنفذت قواته ووهنت، قام بالتفاوض مع الفرنسيين ووقع معاهدة الاستسلام في جوان 1848 (بوحوش، 1997) وكان من جملة الأسباب نقص السلاح والذخيرة.

وذلك لم يمنع استمرار المقاومة في مناطق أخرى، في واحة الزعاطشة (الرحمانية) والتي تعد من المقاومات الدائرة رغم قصر مدتها حيث دامت أزيد من أربعة أشهر بدءا من 16 جويلية إلى 26 نوفمبر 1849، وقد استنفذ العدو في قواته ومعداته الضخمة، وكان أول فشل مني به الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال كاربوسيا قائد مركز باتنة عندما تقدم نحو واحة الزعاطشة بقوات قاربت 2000 جندي في 16 جويلية 1949 فواجهته بثورة عارمة كلفته 31 قتيلا و 117 جريحا فأرتد على أعقابها في اليوم الموالي. وهذا ما أعطى للثوار دعما معنويا وماديا، فازداد في تأجيج المقاومة بين سكان المنطقة (سعدالله، 1992).

تزامنت مقاومة الزعاطشة، بغليان ونقمة سكان منطقة جرجرة على الاحتلال، وكان محمد الهاشي من رواد المقاومة فيها، ساعده في مهمته، اتصاله بسي الجودي في أوائل سبتمبر 1849، فعزما على الجهاد ضد الفرنسيين وعملائهم، حيث وفر له "سي الجودي" الفرسان والحماية اللازمين، وخاضا معارك عدة، فألحقوا بقوات الاحتلال الفرنسي خسائر كبيرة في أولى مواجهاتها وبعد استشهاد محمد الهاشي (سعدالله، 1992) جاء بعده محمد الأمجد بن عبد المالك، الذي اشتهر باسم الشريف بو بغلة، فكثف من حركته وجهاده في منطقة جرجرة لمدة سنتين حتى استشهاد بزارع الميزان (بنادر، 2008)، هدد فيها التواجد الفرنسي في منطقة جرجرة، وانضم إليه أهاليها جماعات حتى كثر جيشه، وبدوا أن الهدف الأول هو تخليص بجاية من الحماية الفرنسية، وجعلها مركزا لثورته، وهكذا فقد واجه الشريف بو بغلة الانتصار والهزيمة معا، مثل كل القادة الكبار، وتمكن من جعل منطقة جرجرة مقبرة للعديد من ضباط وجنود الجيش الفرنسي، وبعد استشهاد بزارع الميزان في 26 ديسمبر 1848 (سعدالله، 1992)، واصل أهالي جرجرة المقاومة من 1855 إلى 1857 بقيادة جديدة (دحلب، 1985)، تمثلت في "لالة فاطمة نسومر" التي ولدت بقرية "ورجة" عام 1830م، حيث أقامت عند أخيها "سي الطاهر" في قرية سومر، واجهت قوات المارشال راندون الذي أزره "ماك ماهون" بالعتاد، وألقي القبض على القائدة والمجاهدة الفذة في 11 جويلية 1857 بعد أن أربكت قوات العدو في عدة معارك، مثل معركة "إلي" و "تحليلت" وأشهر معاركها "تاشكرت" في 18 جويلية 1854 (بنادر، 2008) وظل أهل المنطقة

الأشواوس رافعين لعلم الثورة هددوا فيها المراكز الاستعمارية الفرنسية وضربوا بقوة المتعاونين معها ورفضوا دفع الضرائب والخضوع للحكم الأجنبي (سعدالله، 1992). ولم تقتصر المقاومة على منطقة جرجرة فحسب، بل امتدت إلى الصحراء، ابتداء من مقاومة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي (بوحوش، 1997)، حيث قام الأعلى بن بوبكر بن حمزة بمعركة واد فو ليلة، في 13 مارس 1871، ثم قام في شهر سبتمبر من نفس السنة بخوض معركة ثانية ضد العدو الذي كان يفوقه عدة وعتادا فكان الانتصار حليف المستعمر (سعدالله، 1992)، ثم جاء بعده محمد بن التومي بوشوشة، الذي قرر حمل السلاح ضد الاحتلال الفرنسي مهاجما حامية ورقلة في 05 مارس 1871م، واستولى عليها، إلا أن قوات العدو تمكنت في 27 ديسمبر 1871 من شن هجوم على مدينة تقرت (بوحوش، 1997) واحتلت مدينة ورقلة في 02 جانفي 1872، بقيادة الجنرال دولاكروا، بعد معركة الميلوك جنوب عين صالح، كان هذا بسبب عدم تكافؤ القوي في الذخيرة والسلاح و وقع بوشوشة في الأسر وأعدم بعدها في 29 جوان 1875 (بنادر، 2008)، وقد تلتها ثورة الصبايحية عام 1870 (بوعزيز، 1984)، ثم انتفاضة أولاد عبدون بالميلية في 15 فيفري 1871، وكانت ضد الأوروبيين المتواجدين بالمدينة، لتقوم بعدها ثورة المقراني والحداد وبومرزاق، إذ أقدم الشيخ المقراني على حمل السلاح والثورة في 16 مارس 1871 (دحلب، 1985)، وقام بمحاصرة مدينة برج بو عرييج، إلا أن قوات الاحتلال الفرنسي تمكنت من فك الحصار في 26 مارس 1871م، وأنضم إلى الشيخ المقراني، الشيخ الحداد في 8 أفريل 1878، وفي ظل وجود قيادة عسكرية وروحية، دارت معركة كبيرة بينهم وبين قوات الاحتلال، في 12 أفريل 1871، وفي معركة 05 ماي 1871 (بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية للجزائر، 1999)، واجه الشيخ المقراني القوات الفرنسية وسقط على أثرها في ميدان الشرف والشهادة.

أما الشيخ الحداد، فقد شكل جيشا جزائريا قوامه "12000" مجاهدا خاض برفقتهم معارك طاحنة ضد قوات العدو، لكن نقص السلاح منعه من مواصلة الكفاح (بوحوش، 1997)، وتمكن الجنرال لالمان الفرنسي يوم 24 جوان 1871م من إجهاد المقاومة واعتقال الشيخ الحداد (بوحوش، 1997)، هذا الاستسلام أثر على القائد بومرزاق الذي خاض معركة فاصلة ضد قوات الاحتلال بقيادة الجنرال سوسي في 8 أكتوبر 1871م،

انتهت بانهزام قواته أمام قوات المحتل الفرنسي، ثم أعقب ذلك مقاومة الشيخ بوعمامة عام 1881م، والتي استمرت حوالي 23 عاما، خاض خلالها عدة معارك، أسر في إحداها 300 جندي فرنسي، لكن قوات المحتل تمكنت من محاصرته والقضاء عليه عام 1904 لتفوقها في السلاح والعتاد، وتوفاه الأجل في 7 أكتوبر 1908 بوجدة المغربية.

أما مقاومة التوارق بين 1877 - 1912، فقد تركزت في الهقار، الطاسيلي، تاغيت وجانت بالجنوب الجزائري، بقيادة أهتي غال محمد بن الحاج البكري، الشيخ أمود بن مختار والشيخ أحمد سلطان وخليفة بن عسكر، لمدة ناهزت عن خمسة وثلاثين (35) عاما، ومثلت هذه المقاومة حصنا منيعا أفشل العدو في اختراقه، وكغيرها انتهت باختلال في موازين القوى العسكرية (بن خليف ع..، 2009).

وكان العمل المسلح في ظل ما يعرف بـ "الانتفاضات الشعبية" خاصة في الفترة الممتدة بين (1871 - 1919)، بمثابة رفض للمحتل الفرنسي، والذي لم يقلع عن اضطهاده للشعب الجزائري، ومن هذه الانتفاضات البطولية: انتفاضة الشمال القسنطيني عام 1871م، بقيادة مولاي الشقفة، وانتفاضة الاوراس الأولى سنة 1879 بقيادة محمد أمزيان بن عبد الرحمان الذي قام باغتيال قائد بني سليمان وقائد أولاد داود، لأنهما كانا يقودان مجموعة من عملاء فرنسا، وتدخلت قوات المحتل للقضاء على الثوار وإلقاء القبض على قائدهم الشهيد محمد أمزيان وأعدموه في 16 فيفري 1880م.

وهناك ثورات أخرى هي امتداد آخر لا تقل خطورة وضراوة، مثل ثورة عين الترك عام 1901، بضواحي مدينة مليانة، حيث أعلن أهالي المنطقة الجهاد ضد المحتل، وانضمامهم إلى ثورة بوعمامة، يضاف إلى هذه ثورة عين بسام عام 1906 التي ثار خلالها الجزائريون ضد ممارسات المحتل، فاتخذ على إثرها إجراءات تعسفية جديدة عرفت باسم "منشور جونار" (بن خليف، 2009). وإن فشلت هذه المقاومات والانتفاضات في تحقيق هدفها الرئيسي والمائل في الاستقلال التام للجزائر خلال القرن التاسع عشر، فإنها حققت مكاسب، إذ لم يمنعها الفشل من التجدد خلال القرن العشرين في مناطق أخرى، كمنطقة بني شقران في 05 أكتوبر 1914 وانتفاضة الاوراس الثانية التي كانت نواتها بريكة وعين التوتة في 10 نوفمبر 1916 (هلال، 2010)، بالهجوم على برج ماك ماهون بشمال قسنطينة، واستمرت هذه الانتفاضات إلى مجيء الأمير خالد وبداية المقاومة السياسية

سنة 1919، مما سمح للحركة الوطنية الخروج من دائرة العمل المسلح إلى الكفاح السياسي و بالتالي الدخول في إجازة قرابة 50 سنة لتجرب أساليب أخرى مع الاحتلال الفرنسي (ولد الحسين، 2010).

وعليه فإن المقاومات والانتفاضات بوجه عام، إن لم تتوج بانتصار كت تحقيق الاستقلال وطرد المحتل، فإنها عبرت بصدق وبصور قطعية عن رفضها المطلق للاحتلال الفرنسي الدخيل، وكانت هذه القاعدة الذهنية الأولى التي استلهمت منها الأجيال اللاحقة العبرة و التجربة، لمواصلة النضال والدفاع عن حريتها بكل الوسائل الممكنة وفي كل المراحل إلى ثورة 1 نوفمبر 1954 التي كللت بالاستقلال في 5 جويلية 1962 (سعدالله، 1992).

وبعدما سبق عرضه وتحليله توصلت إلى بعض الوقائع التي لا بد من ذكرها، فحمل الجزائريين السلاح للدفاع عن الأرض والحرية في فترة المقاومات والانتفاضات، كان رد فعل طبيعي وواقعي ضد المحتل الفرنسي ورفضه له بصفة قطعية منذ البداية، فهل الفكر المسلح كوسيلة لتحرير البلاد، من الغزو والاحتلال الفرنسي فشل؟!

أن هذا الفشل ظرفي ومؤقت، وإذا كان اعتقادي في محله فإن الثوار والمقاومون الجزائريون كانوا أقرب لنجاح منه إلى الفشل ولو بخطوة واحدة، وأن نجاح العمل المسلح في بدايته ليس قاعدة بل هو الاستثناء، كما أن للفشل مبرراته القوية وللنجاح بعض الايجابيات التي لا يمكن إغفالها.

4. الدور الثوري للزوايا في المقاومة السياسية والثورة التحريرية (1919-1962م):

لقد اهتمت أغلبية الزوايا والطرق الصوفية في الذود عن البلاد ضد المحتل الفرنسي منذ القرن 19 م، من خلال احتضانها المقاومة الشعبية، وتأثيرها عليها. وقد كانت القاعدة الأولى للفكر المسلح ومن أمثلة ذلك الزاوية القادرية التي تنتهي إليها مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)، وثورة بوعمامة (1881-1883) وكانت الزوايا حامية الدين ومصدر العلم والجهاد ونواة النهضة وملهم لثورات عديدة ضد المحتل (بودبوز، 1975).

تعددت وظائف المؤسسات الدينية ولكن ليس صعبا أن نमित اللثام عنها، وإن إضاعة صغيرة عليها قد تكشف لنا دورها الثقافي والاجتماعي، والأهم دورها في الفكر المسلح طوال فترة تواجد المحتل الفرنسي.

إن أهمية الزوايا في الفكر المسلح يظهر من خلال دورها البارز في مقاومة المحتل. فهي قاعدة جهادية ودفاعية عن الوطن، فمثلت بذلك خطرا على المحتل ومصالحه، وتؤكد الأخير من خطورة دورها المتعدد الجوانب.

وقد أكد مارسال سيلميان خطورة المؤسسات الدينية بقوله: "...غالبا ما تتحول الى معقل للثورة ضد الأجنبي، وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام" (simian & marcel, 1910). ويستطرد بقوله أن الزوايا لم تعد "... مكانا لتعليم القرآن الكريم ... بل أصبحت منبرا للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات والثورات. ووصف شارل بلوسيرال أتباع الطرق الصوفية بالمليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة ... مستعدة للإنطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها (Ch.brosselard, 1989). إذ كانت هذه أحكام الكتاب الفرنسيين فكيف يكون رأي المحتل فيها؟ والحقيقة أن المحتل خشها منذ القرن 19م وبداية القرن 20م، كونها المحرك الكبير للجهاد، وآلة هدم المحتل الأولى، وأمام تفوق إمكانيات المحتل عسكريا وسيطرة العنصر الأوروبي، فقد حاول القضاء على نفوذ هذه المؤسسات الدينية (المدارس والمساجد والزوايا) وحول الكثير منها إلى مؤسسات إدارية وكنائس وكاتدرائيات، وطارد العلماء والفقهاء وصادر ممتلكاتهم ونفي بعضهم.

أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد شهدت هذه المؤسسات الدينية نهضة وطنية في الفكر المسلح مقاومة بذلك المحتل، فقاطعت أي تعامل فرنسي. إلا أن بريقتها بدأ يتراجع لفائدة الأحزاب السياسية الناشئة. وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهكذا ضعف دورها في الفكر المسلح التي طالما كانت مناصرة له و مؤطرة لقادته و أقتصرت دورها على التعليم والتربية (سعد الله، 1969). وزاد الطين بلة توظيف بعض من رجال الزوايا والطرقية من طرف المحتل ابتداء من سنة 1932 أي بعد تأسيس جمعية العلماء والتي جمعت المناهضين للمحتل بما فيهم ممثلي الزوايا والطرق الدينية (J.desparmet, 1933) ، لتحويلهم لأدوات نافعة، وفي سنة 1937 تم إعادة جمع شتاتهم من جديد بتأسيس جمعية رؤساء الطرق الدينية، وبتشجيع من إدارة المحتل، دخلت في صراع مع جمعية

العلماء المسلمين, وهكذا تراجع دورها في الفكر المسلح لأخذ طريق جديد والمتمثل في المخاصمة مع أشقائهم العلماء الذين حملوا لواء إعادة الدين إلى منابعه الصحيحة .

إنّ الدور الحقيقي الذي قامت به الزوايا في الفكر المسلح , كان واضحاً أيام الانتفاضات والثورات التي قام بها الشعب الجزائري ضد المحتل منذ البداية , واستند فكرها المسلح على مفاهيم واضحة المعالم كالجهاد , والمجاهد والشهيد وحب الاستشهاد , وتداولت على ألسنة شيوخ الزوايا وعلمائها لتأليب الجزائريين للدفاع عن الأرض والعرض وقد استمر الفكر المسلح بشكل محدود مع بعض الزوايا أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها وخلال الثورة التحريرية المباركة , فعدد من أعضاء الزوايا ومعلميها ومحبيها وأساتذتها وطلبتها قد شاركوا في الفكر المسلح , ومن مناضلي الحركة الوطنية والثورة من تعلموا في مدارس الزوايا . وحفظوا القرآن قبل الالتحاق بمدارس الجمعية أو المدارس الفرنسية . أولم ينتسب مصالي الحاج إلى الطريقة الدرقاوية وهو في زهرة شبابه ؟ أو لم يعيش حسين آيت أحمد في بيئة دينية وجده الشيخ الفضل محند الحسن مرابط وأحد شيوخ الطريقة الرحمانية (aitahmed, 2002) , و لتضحية أسرة الهاشي شريف شيخ الطريقة القادرية بوادي سوف أكبر دلالة , عندما أقدم أحد أبنائها بالتبرع بقصر الباي بتونس بعد شرائه عام 1946 إلى الثورة الجزائرية , فرفرف العلم فيه ونصبت أول حكومة مؤقتة جزائرية به (عميراوي, 2003) , وهذا ما يجعلنا نستبعد الصراع لمصادرة دور بعض معلمي وطلبة الزوايا والطرق الدينية كفتنة من المجتمع الجزائري ساهمت في الفكر المسلح , أما ذوي النفوس الضعيفة منها فهم حفنة من الناس . لا تقدم ولا تأخر في الحقيقة التاريخية الثابتة .

ألم تكن أسماء هذه الشخصيات من أسسوا الفكر المسلح وبمختلف تنظيماته من جمعية الراشد و لجنة شباب بلكور والمنظمة الخاصة واللجنة الثورية ثم جبهة التحرير وجيشها من أبناء الكتاتيب والزوايا؟.

لقد كانت زاوية الوزانة مركزاً للمنطقة الرابعة أثناء الثورة ومدرسة للجهاد والنضال , إلتحق بها بعد الإنتفاضة الطلابية في 19 ماي 1956 الشاب عمارة رشيد . الذي أصبح مسؤولاً في أحد المراكز التكوينية للطلبة وكانت مركز العبور للشهيد والعقيد محمد

العربي بلمهيدي و عبان رمضان حيث بقيا بها بعض الأيام مع بعض قادة المنطقة الرابعة (أعمر أو عمران و سليمان دهيليس و علي ملاح) ثم انتقلوا إلى مؤتمر الصومام (وزارة المجاهدين، 2007). ولأنّ بعض الزوايا والطرق الصوفية تراجع دورها الثوري ولم تعد كما كانت في سابق عهدها، بل أصبحت بعضها أداة في يد المحتل حركتها في خدمة مصالحه، و منهم كان رافضاً للفكر المسلح وغير مؤيد حتى للثورة، بل محرض للشعب الجزائري، وداعياً لمقاطعتها وعليه فإنّ دور الزوايا كان إيجابياً أثناء المقاومة الشعبية وتراجع لدى بعض النفوس الضعيفة لذا طالها التشويه والتأويل والأحكام العامة التي لم تنصفها وتكررت لكل المحاميد والفضائل.

5. خاتمة:

يتبين مما سبق عرضه أنّ الزوايا كانت من المؤسسات الدينية والثقافية التي حاولت أن تلعب دورها متميز، وكانت مؤسسة متكاملة رغم مواردها المحدودة، و كانت قلعة للعلم والتربية وحصن للتعبئة والجهاد في سبيل الله والوطن، حيث ساهمت في نشر العلم والمعرفة خلال الفرة العثمانية، وعندما انشغلت الإدارة العثمانية بالذود عن الحدود وجباية الضرائب أهملت شؤون الرعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وغطت الزوايا والمؤسسات الوقفية الأخرى هذه الفجوة وتضاعف دورها أكثر في مواجهتها الاحتلال الفرنسي وقوانينه ومحاولته استمالة ذوي النفوس الضعيفة، لكنها كانت قاعدة خلفية للنضال الثقافي والإصلاحي والسياسي، وفي المقاومة الشعبية وثورة التحرير كانت مقراً للتعبئة والتحضير المادي والبشري للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، كما كانت ملاذاً آمناً وملجأً للمجاهدين ونشاطاتهم في أحلك الظروف، وعليه فالكتابات التي طالتها بحبر سلبي تحتاج إلى مراجعة ودراية، وتناول دور الزوايا والكتاتيب والمساجد والمكتبات وجمعية العلماء والكشافة الإسلامية وغيرها من المؤسسات الثقافية والدينية التي كان لها الفضل في المحافظة على هويتنا ولا زالت مؤهلة للقيام بمهامها بعد الاستقلال وحتى اليوم.

إن إشكالية دور الزوايا في الفترة العثمانية والاحتلال الفرنسي وجهودها الثقافية والدينية والثورية ومساعدتها في المحافظة على الهوية الوطنية مسألة حيوية، وهي أكبر من أن تعالج أو تحصر في نص وأسطر أو دراسة نكتبها، وما قدمته في هذه الورقة العلمية إلاّ ومضات على أدوار الزوايا المختلفة ورصيدها التاريخي والتراثي، بل أنّ مثل هذه المؤسسات ما زالت قادرة على مواجهة التحديات الراهنة، والمساهمة في وحدة الأمة الجزائرية في ظل العولمة والغزو الغربي ومن النتائج التي نستخلصها من استعراض دور الزوايا عبر فترتي العثمانية والإحتلال الفرنسي ما يلي:

-إنّ حروب الأمس و اليوم هي حروب حضارية وعقدية وإعلامية واقتصادية تستهدف الأفكار والعقول، والمنتصر فيها هو من امتلك النفوذ العلمي و التكنولوجي والتحصين العقدي وهي مفاتيح النصر والفلاح وهذا لن يتأتى إلا تفعيل دور هذه المؤسسات ولا نكتف بتذكر الأمجاد .

- أنّ الدولة في الوقت الراهن لا يمكنها أن تتحكم في انفتاح المجتمع على الآخر، بل مكان الحل في تحصين الأجيال و تنمية مهارات الاتصال والتفكير والانتقاء الجيد من الموروث الثقافي الوطني.

-إن الهوية الوطنية تعرف تشرذماً و هو ما يستوجب تنشيط طرق الحفاظ على المواطنة، و وحدة الأرض والتراث والأمة. -تربية النشء تربية سليمة، مبنية على تراث الأجداد، وما خلفوه لنا من قيم وعادات وتقاليد ليكون لهم الدرع الحصين.

-إن الأدوار التي كانت تلعبها الزاوية على صعيد الفرد والمجتمع يجعل منها منظومة فعالة في الدولة بحيث يمكن اعتبار الزوايا في تلك الفترة بمثابة دويلات صغيرة كاملة النظم تامة العقائد والأفكار متحصنة بروح النخوة والمنعة والجيرة والإباء

-إن الغاية الكبرى من التلفيق الذي طال الزوايا خلال الفترة العثمانية والفرنسية على حد سواء إنما هو مساس بوحدة المجتمع و طعن في العقيدة الثورية للشعب الجزائري التي تصدت للإحتلال الفرنسي.

-الآفاق والتوصيات:

-إنّ محاولات الاحتلال الفرنسي لاستمالة بعض الطرق الصوفية و الزوايا و بعض الكتابات الاستشراقية المتحاملة عليها وعلى تاريخ الجزائر، هي وراء هذه الريبة التي طالت بعض

الكتابات من باحثينا، ولكن هذا النوع من الكتابات لن يكون الملمهم لأقلام المدرسة التاريخية الجزائرية .

—مراجعة دور المنظومة الثقافية (المسجد، المدرسة، الجامعة..) في الماضي والحاضر ضرورة ملحة، لتجديد خطاها ووسائل تلقيها، تماشيا ومتطلبات العصر، وإبراز الجوانب التراثية المشرقة وتكريس وحدة المجتمع ولأمة.

—توسيع المجال الفكري وقبول التنوع اللغوي والثقافي والديني الموجود في الوطن، وتأصل المواطنة والانتماء لحمايتها من التدخلات الأجنبية.

—تنظيم ملتقيات وطنية ودولية بغية تقديم قراءة جديدة وصياغة واضحة وحقيقية لدور الزوايا والمؤسسات الوقفية ورموز المقاومة والعلم والتعليم في الفترة العثمانية والاحتلال الفرنسي وتصويب الكتابات التي طالتها بحبر سلمي دون معرفة علمية دقيقة.

5. قائمة المراجع

1. المؤلفات:

- باللغة العربية:

- يحي نبيلة، 2017، الزوايا في الأنثروبولوجيا السياسية المغاربية، وهران، الجزائر، مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

- نسيب محمد، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر العربي، دت، الجزائر.

- الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات، ط1، أدرار، الجزائر، مديرية الثقافة لولاية أدرار.

- محساس أحمد، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، ط1، الجزائر، دار القصبة للنشر.

- دحلب سعد، مهمة منجزة، الجزائر، منشورات دحلب.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830 - 1900)،

ج1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1939، بيروت، لبنان، دار



-المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، تاريخ الجزائر 1830 -1962، مقاومة المتيجة،الجزائر، قرص مضغوط، الجزائر، وزارة المجاهدين.

- يوسف محمد،الجزائر في ظل المسيرة النضالية للمنظمة الخاصة، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال.

-عمار بوحوش، التاريخ السياسي الجزائري منذ البداية ولغاية 1962، ط1، الجزائر، دار المغرب الإسلام.

-طبيب بنادر،الجزائر حضارة وتاريخ، دار هومة.

- شرشل شارل هنري ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله،تونس، الدار التونسية للنشر والإشهار.

-يحيى بوعزيز، ثورة 1871 دور عائلي المقراني والحداد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

-يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية للجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1999.

-عبد الوهاب بن خليف،تاريخ الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، ط1، الجزائر، دار طليحة.

-عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 – 1962)،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

-ولد الحسين محمد الشريف، من المقاومة إلى الحرب من أجل الاستقلال (1830 – 1962)،الجزائر، دار القصبة للنشر، الجزائر.



- بودبوزمحمد علي ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، ج1، قسنطينة،الجزائر، مطبعة البعث.
- عميراوي احميدة، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر ,دار الهدى للطباعة والنشر ,عين مليلة ,الجزائر. -
- وزارة المجاهدين ، دور الزوايا ابان المقاومة والثورة التحريرية،الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين .
- باللغة الأجنبية:

marce l. simian. Les conférées islamiques en Algérie. Alger .a tour dan.

Ch.brosselard. les khouans et la constitution des ordres religieux musulmans .Bourget , inpa..

- J.desparmet .deux. Manifestes algériens . in « Afrique française ,des 1933 .pp780-783.

- Hocine aitahmed . l'esprit d' indépendance. Mémoires d'un combattant ; 1942-1952 ;ALGER ,ed bozakh .

2-الطُروحات:

-حوتية محمد الصالح، 1989، قبيلة كنتة، خلال القرنين 18م-19م، مذكرة ماجستير في التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.

3-المقالات:

- الوغزيري أحمد الجعفري ، 2013، دور الزوايا التواتية في حماية المقومات الوطنية ابان الفترة الإستعمارية 1830-1962 م ،بوزريعة ،الجزائر ،مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد7 .



- مصطفى عوفي- زينب عمراني، 2012، الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة العدد 04.
-التويجري عبد العزيز بن عثمان ، 2011، التراث والهوية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة- يونسكو.

4.المداخلات:

-بن زيطة أحمد ، 01 ماي 2000 ،الهيكل التنظيمي والوظيفي للزوايا بمنطقة توات، الملتقى الوطني الأول للزوايا ،وزارة الثقافة ،مديرية الثقافة أدرار،الجزائر.